

حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيَّسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ
نَصْرًا فَنُجِيَ مِنْ نَشَاءٍ وَلَا يُرَدُّ بِأَسْنَاعِنَ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ

{حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرًا من نشاء ولا يرد بأسنان القوم المجرمين}

[يوسف: 110]

قال سيد قطب - رحمه الله -:

إنها صورة رهيبة، ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل، وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود. وتمر الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلا قليل، وتكر الأعوام والباطل في قوته، وكثرة أهله، والمؤمنون في عدتهم القليلة وقوتهم الضئيلة.

إنها ساعات حرج، والباطل ينتفخ ويطغى ويبطش ويغدر. والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم في هذه الأرض.
فتهجس في خواطيرهم الهواجس.. تراهم كذبوا؟

ترى نفوسهم كذبتم في رجاء النصر في هذه الحياة الدنيا؟

وما يقف الرسول هذا الموقف إلا وقد بلغ الضرر والحرج والضيق فوق ما يطيقه بشر.

وما قرأت هذه الآية والآية الأخرى: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله؟...}.

ما قرأت هذه الآية أو تلك إلا وشعرت بقشعريرة من تصور الهول الذي يبلغ بالرسول هذا المبلغ، ومن تصور الهول الكامن في هذه الهواجس، والكرب المزلزل الذي يرج نفس الرسول هذه الدرجة، وحالته النفسية في مثل هذه اللحظات، وما يحس به من ألم لا يطاق.

في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الضرر، ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة.. في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاماً:

{جاءهم نصرنا، فنجي من نشاء، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين}..
تلك سنة الله في الدعوات.

لا بد من الشدائدين، ولا بد من الكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة.

ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس.

يجيء النصر من عند الله، فينجو الذين يستحقون النجاة، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكنبين، وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجردون.

ويحل بأس الله بال مجرمين، مدمرًا ماحقاً لا يقفون له، ولا يصددهم ولهم ولا نصير.

ذلك كي لا يكون النصر رخيصاً فتكون الدعوات هزلاً.

فلو كان النصر رخيصاً لقام في كل يوم دعي بدعوة لا تكلفه شيئاً. أو تكلفه القليل.

ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبأً ولا لعباً.

فإنما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج، ينبغي صيانتها وحراستها من الأدعية.

والأدعية لا يحتملون تكاليف الدعوة، لذلك يشفقون أن يدعوها، فإذا أدعوها عجزوا عن حملها وطروحها، وتبيّن الحق من الباطل على محك الشدائـد التي لا يصمد لها إلا الوانقوـن الصادقـون؛ الذين لا يتخلـون عن دعـوة الله، ولو ظنـوا أن النـصر لا يجيـئـهم في هذه الحياة!

إن الدعـوة إلى الله ليست تجـارة قصـيرة الأـجل؛ إـما أن تـربح رـبـحاً مـعـيناً مـحدـداً في هـذـه الـأـرـضـ، وإـما أن يـتـخلـى عنـها أـصـاحـابـهاـ إلى تجـارة أـخـرى أـقـرب رـبـحاً وأـيـسرـ حـصـيلـةـ!

والـذـي يـنـهـضـ بـالـدـعـوةـ إـلـىـ اللهـ فـيـ الـمـجـمـعـاتـ الـجـاهـلـيـةـ -ـ وـالـمـجـمـعـاتـ الـجـاهـلـيـةـ هـيـ الـدـينـ لـغـيرـ اللهـ بـالـطـاعـةـ وـالـاتـبـاعـ فـيـ أـيـ زـمـانـ أوـ مـكـانـ. يـجـبـ أـنـ يـوـطـنـ نـفـسـهـ عـلـىـ أـنـهـ لـاـ يـقـومـ بـرـحلـةـ مـرـيـحةـ، وـلـاـ يـقـومـ بـتـجـارـةـ مـادـيـةـ قـرـيبـةـ الأـجـلـ!ـ إنـمـاـ يـنـبـغـيـ لـهـ أـنـ يـسـتـيقـنـ أـنـهـ يـوـاجـهـ طـوـاغـيـتـ يـمـلـكـونـ الـقـوـةـ وـالـمـالـ، وـيـمـلـكـونـ اـسـتـخـافـ الـجـاهـيـرـ حـتـىـ تـرـىـ الـأـسـوـدـ أـبـيـضـ وـالـأـبـيـضـ أـسـوـدـ!

وـيـمـلـكـونـ تـأـلـيـبـ هـذـهـ الـجـاهـيـرـ ذـاتـهـاـ عـلـىـ أـصـاحـابـ الـدـعـوةـ إـلـىـ اللهـ، باـسـتـثـارـةـ شـهـوـاتـهـاـ وـتـهـيـدـهـاـ بـأـنـ أـصـاحـابـ الـدـعـوةـ إـلـىـ اللهـ يـرـيدـونـ حـرـمانـهـاـ مـنـ هـذـهـ الشـهـوـاتـ!ـ

وـيـجـبـ أـنـ يـسـتـيقـنـواـ أـنـ الدـعـوةـ إـلـىـ اللهـ كـثـيرـ التـكـالـيفـ، وـأـنـ الـانـضـمامـ إـلـيـهـاـ فـيـ وـجـهـ الـمـقاـوـمـةـ الـجـاهـلـيـةـ كـثـيرـ التـكـالـيفـ أـيـضاـ.ـ وـأـنـهـ مـنـ ثـمـ لـاـ تـنـضـمـ إـلـيـهـاـ -ـ فـيـ أـوـلـ الـأـمـرـ -ـ الـجـاهـيـرـ الـمـسـتـضـعـفـةـ، إـنـمـاـ تـنـضـمـ إـلـيـهـاـ الصـفـوـةـ الـمـخـتـارـةـ فـيـ الجـيلـ كـلـهـ، الـتـيـ تـؤـثـرـ حـقـيـقـةـ هـذـهـ الدـيـنـ عـلـىـ الرـاحـةـ وـالـسـلـامـةـ، وـعـلـىـ كـلـ مـتـاعـ هـذـهـ الـحـيـاةـ الـدـنـيـاـ.ـ وـأـنـ عـدـ هـذـهـ الصـفـوـةـ يـكـونـ دـائـمـاـ قـلـيـلاـ جـداـ.

ولـكـ اللـهـ يـفـتـحـ بـيـنـهـمـ وـبـيـنـ قـوـمـهـ بـالـحـقـ، بـعـدـ جـهـادـ يـطـوـلـ أـوـ يـقـصـرـ.ـ وـعـنـدـنـ ذـكـرـ تـدـخـلـ الـجـاهـيـرـ فـيـ دـيـنـ اللـهـ أـفـوـاجـاـ.

انتـهـيـ مـنـ كـتـابـ فـيـ ظـلـالـ الـقـرـآنـ

المـصـادـرـ: